من اوراق اسبوع المدى الثقافي السادس

امين المميز من خلال مذكراته الفولكلورية

زين النقشبندي

شرطي في شارع الرشيد

احد جسور بغداد عام ١٩١٦

التاريخ الشخصي

كنت أحد ملازمي المرحوم الحاج أمين المميز كاتب موسوعة بغداد والدبلوماسي المتمرس الذي طواه الموت يوم الأحد ١٥ / حزيران / ١٩٩٧ ودفنت معه أسرار وأسرار عن فترة الحكم الملكي وما قبله .

اعتاد الراحل المميز أن يملي عليّ ما وعته ذاكرته من ذكريات كثيرة عن تراث بغداد مذكراً إياي بأن أجد الوقت المناسب لنشرها .

وعن ترجمته ذكر لي(أسمي محمد أمين ، والدي عبد الجبار بك بن إبراهيم أفندي المميز، وقد أوردت تفاصيل نسبي وتعلقاتي العائلية : أجدادي وأعمامي وأخوالي وأخواتي وأبنائي وأمي وجداتي وزوجتي في هامش الصفحة (٣٧) من كتابي (بغداد كما عرفتها) ، جدنا الأعلى الوالي أحمد باشا بن الوالي حسن باشا، وكانا قد حكما بغداد حكماً شبه مستقل عن السلطنة العثمانية قرابة نصف قرن وأحمد باشا هو والد عادلة خاتون صاحبة الخيرات والنفوذ ومشيدة الجامعين المشهورين باسمها وهما جامع عادلة خاتون الصغير الواقع في عكد الصخر (مدخل سوق الصفافير مقابل المتحف البغدادي) وقد خلّدته بعد تهدمه ثلاث نخلات باسقات ما زالت قائمة أمام العمارة التي شيدتها أمانة العاصمة في شارع المأمون مقابل المتحف العراقي القديم ، وقد شيد بديلاً عنه جامع في الصرافية بالاسم نفسه سنة ١٩٦٣،

ذلك هو وجه من التاريخ القديم ، أما وجه التاريخ المعاصر، فيذكر أنا بغدادي (أصلي) ، وكما يقول المثل الدارج (جر كراع ودك كراع) ، وقال ولدت في بغداد سنة ١٩١٢ علماً انه ورد خطأ في التسجيل بالوثائق الرسمية انه ولد في ١٩٠٩/٥/١٠ في محلة كانت تعرف في غابر الأزمان محلة الدنكجية والتي وصفها في كتابه (بغداد كما عرفتها) بأنها كانت (قطب الكون) وصارت تعرف بعدئذ بمحلة (جديد حسن باشا) نسبة إلى الوالي حسن باشا والد أحمد باشا وجد عادلة خاتون ، وقد سكناها آباً عن جد وكما يقول (خبناها) كابرا عن كابر لمئات السنين)، وبذكرنشأت وترعرعت وسكنت ودرست فيها شطراً من عمري ولم أنفك عنها إلا حينما نقلنا سكنانا إلى الصرافية سنة ١٩٣٥ وقضيت بين الدنكجية والصقلاوية والفلوجة والرمادي من أعمال لواء الدليم (محافظة الأنبار حالياً) .

درس في كتاب الملا إبراهيم ابن الملا أحمد الشيخلي في جامع عادلة خاتون الصغير في عكد الصخر، وتخرج في المدرسة الحيدرية الابتدائية في بغداد عام ١٩٢٤- ١٩٢٥، و تخرج في المدرسة الثانوية في بغداد سنة ١٩٢٨-١٩٢٩، والتحق بالجامعة الأمريكية في بيروت سنة ١٩٢٩ وتخرج فيها عام ١٩٣٣ وعمل في سلك التعليم سنتين ثم انتسب إلى السلك الدبلوماسي الذي كان يسمى (الخارجي) سنة ١٩٣٥،

درس في جامعة لندن لمدة سنتين في موضوع العلاقات الدولية ولم يحصل على شهادة لنقله إلى منصب آخر، وكان أول تعيينه في المفوضية العراقية بلندن سنة ١٩٣٦ ثم نقل إلى المفوضية العراقية في باريس سنة ١٩٣٨ ثم نقل إلى السفارة العراقية في لندن ثانية سنة ١٩٤٦ ثم نقل إلى السفارة العراقية في واشنطن سنة ١٩٤٧ ثم عين قنصلاً للعراق في نيويورك وممثلاً للعراق في هيئة الأمم المتحدة سنة ١٩٤٩ ثم عين مديراً عاماً للدائرتين السياسية والعربية في وزارة الخارجية ووكيلاً للوزارة بالوكالة بدرجة سفير ثم عين قائماً بأعمال المفوضية العراقية في دمشق سنة ١٩٤٩-١٩٥٠ ثم عين وزيراً مفوضاً للعراق في المملكة العربية السعودية سنة ١٩٥٤ حتى عام ١٩٥٦ ، وأحيل على التقاعد بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ وتفرغ لإدارة أعماله الخاصة وتتبعاته ودراساته التاريخية والتراثية .

المميز قال لي:

وقال لي انه العراقي الوحيد من منتسبي السلك الدبلوماسي الذي كتب أربعة كتب في الأدب الدبلوماسي بل ربما حتى على المستوى العربي وربما الأجنبي وأضاف : لم تكن عندي هوايات مفضلة في حياتي ، وكل هواياتي في صباي وشبابي كانت هوايات بسيطة عابرة ، كالتصوير والرسم وجمع الطوابع والنوادر والطيور والحيوانات الأليفة ومطالعة الصحف والمجلات والكتب وما إلى ذلك مما يستسيغه الشباب، وكنت بعيداً عن الرياضة والألعاب بكافة أنواعها ، ولم تتبلور هواياتي المفضلة ، وهي حب الأسفار ، إلا بعد انتسابي للسلك الخارجي فصرت أكتب كتاباً عن كل بلد أعمل فيه ، وقد "درت عكا ومكة وعكود اليهود" كما يقول المثل البغدادي ، لذلك الغرض ، فخرجت بثلاثة كتب عن البلاد الأجنبية ، فصدر كتابي الأول (الإنكليز كما عرفتهم) سنة ١٩٤٤ ولما أهديت هذا الكتاب إلى المرحوم حافظ عفيفي باشا مؤلف كتاب (الإنكليز في بلادهم) ثم زرته عندما كان محافظاً لبنك مصر ، قال لي بكل تواضع " لو كنت أعلم بأنك ستصدر كتابك هذا لما أصدرت كتابي " ، أما الكتاب الثاني فهو كتاب (أميركا كما رأيتها) فقد صدر عام ١٩٥٢ وحاز الجائزة الأولى للمجمع العلمي العراقي لتلك السنة ، عندما كان المرحوم السيد منير القاضي رئيساً للمجمع وذلك بتزكية وتوصية من عضو المجمع الأستاذ محمد بهجة الأثري ، أستاذي في اللغة العربية ، أما الكتاب الثالث فهو كتاب (المملكة العربية السعودية كما عرفتها) فقد صدر عام ١٩٦٣، وقد هدفت من ورائه التقريب بين العراق والمملكة العربية السعودية .

وقد تضمن كتابه الأخير بغداد كما عرفتها المطبوع سنة ١٩٥٨ دراسات ومطالعات عن (سورية كما عرفتها) و(مصر كما رأيتها) و (فلسطين وشرق الأردن كما عهدتها) ، وهو يختلف شكلا وموضوعا وأسلوبا ولغة عن كتبه الأخرى ، فقد كتبه إبان الحرب العراقية- الإيرانية بعاطفة جياشة ورغبة صادقة وحب أكيد لبغداد كما يكتب عاشق رسالة غرام لعشيقته ، فلذلك تراه بدأ الكتاب بالعبارة التالية: "عهدا صادقا اقطعه على نفسي ووعدا صادقاً التزم به مادمت حيا فوالذي نفسي بيده لن استبدل شكنكه (شكنك، من الفارسية (شكسته سنك) ، وتعني الحجر أو الآجر المكسر ، وكان البناءون البغداديون يتخذونه حشية في بناء جدران الدور) واحدة من أحجارك بكل صخور الدنيا وقصورها " كما ختم الكتاب بالعبارة التالية: "هاأنا ذا" بغدادي من أعماق جذور بغداد ومن صميم مراحل تاريخها الغابر والمعاصر ، وسأمضي بقية أيام عمري فيها والأعمار بيد الله واني لأوصي بان ادفن في ثراها الطاهر إن شاء الله ذلك ، وهو القائل صدقت كلمته ومَا تَدْرِي نَفْس بِأَيّ أَرض تموت.

وعن طبيعته قال (طبيعتي تميل إلى مراعاة التقاليد والتمسك بأهداب العقيدة الإسلامية وشعائر الدين الحنيف، وأني اجتماعي النزعة بالغريزة، أحب المعاشرة والمجالسة وتفقد الأصدقاء والأقرباء ، أمقت الأنانية والاستئثار وحب الذات ، أميل إلى التفاؤل في نظرتي إلى الأمور التي تجابهني في مسالك الحياة ، أجنح إلى المحافظة والاعتدال في التصرف ، أحب مجالسة الشيوخ والمعمرين ، وأسعد الساعات هي التي كنت أقضيها في مجالس معروف الرصافي ورؤوف الجادرجي ومحمود صبحي الدفتري وتحسين قدري وصالح صائب الجبوري ، وفخري البارودي في دمشق ، والشيخ محمد نصيف في جدة .

تعلقي بالتراث ، أو كما يسميه الشيخ جلال الحنفي (الفلكلور) تعلق أعمى لا يزعزعه كسب ولا مال ولا وعد ولا وعيد ، أفضل الطعام الشعبي واللباس الشعبي والغناء الشعبي وكل تقليد شعبي ، وأحب كل شيء قديم إلى حد الهيام ، لا شيء يغيظني ويخرجني عن طبيعتي الهادئة والمعتدلة مثل ما يغيظني أي تعد أو ظلم يقع على شخص أو على معتقدي أو على وطني ، فأبذل كل ما في وسعي لمحاربة ذلك الظلم والعدوان ، قدر استطاعتي وضمن حدود إمكانياتي ، متمثلاً بقول أحد الحكماء القدماء " لقد أقسمت أمام محراب الله شن حرب أبدية على كل لون من ألوان الظلم على البشر " .

لازمت بغداد أيام طفولتي وصباي وشبابي وكهولتي وشيخوختي، وعشت فيها أيام بؤسها وشقائها وحرمانها، إني أحب الحياة لأني أحب أن أعمل شيئاً مذكوراً في هذه الحياة من أجل نفسي ومن أجل أبنائي وأحفادي ومن أجل وطني وأمتي).

دعوة للبغاددة

وذكر لي انه كان قد وجه نداء إلى قدامى البغداديين قبل وبعد صدور كتابه (بغداد كما عرفتها) أن يكتبوا عن المحلات التي نشأوا وترعرعوا فيها ، وعن الشخصيات التي عاصروها وعن المعالم التي شاهدوها، وعن بغداد أيام طفولتهم وصباهم وشبابهم ، وفي الأسلوب الذي يختارونه ، هذا يكتب عن قنبر علي، وذلك عن محلة باب الشيخ ، وآخر يكتب عن صبابيغ الآل ، وآخر عن القره غول وآخرون يكتبون عن الجعيفر والشيخ بشار والشواكة وسوق الجديد ، ومن ثم يتولى الشيخ جلال الحنفي والأستاذان حميد العلوجي وعزيز الحجية تنسيق هذه المعلومات وتوحيدها وإضافة ما لديهم من معلومات فولكلورية وهم الثقات البغداديون المعاصرون ليخرجوا بكتاب موحد عن حياة بغداد والبغداديين في أوائل القرن الحالي وذلك على غرار مذكرات فخري البارودي المنشورة في دمشق عام ١٩٥١ .

موسيقى الجسور

وقد سجل ذكرياته عن بغداد في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى يوم كانت في أوج ظلامها الحالك ، ويتذكرها يوم كان فيها جسر واحد فقط من "الدوب الخشبية العائمة" وإذا ما انقطع هذا الجسر وهربت الدوب إلى (كراره) أو أنزلت (حدار) إلى البصرة انقطع الاتصال بين صوبي الكرخ والرصافة إلى ان تعود (الدوب) من حيث هربت مصحوبة (بالمزيقة) فكيف هي بغداد اليوم وفيها تسعة جسور حديدية ثابتة.

ويوم لم يكن فيها شارع واحد معبد أو مرصوف باستثناء عكد الصخر، شارع الجسر المرصوف بالصخر الجلمود الأسود ، ويتذكرها يوم لم يكن فيها غير سيارة واحدة من نوع (فوردام اللوكيه) هي سيارة الوالي خليل باشا (والي بغداد من ٦ ربيع الأول سنة ١٣٣٤ إلى جمادى الأولى سنة ١٣٣٥، وهو الذي بدأ بشق شارع الرشيد الحالي ، فعرف الشارع في حينه بخليل باشا جاده سي، أي جادة خليل باشا) تسير في الشارع الوحيد الصالح لسير السيارة وهو الشارع الجديد الذي فتحه الوالي لهذا الغرض ، و يوم كان (الكاري) الذي يعمل بين بغداد والكاظمية كأسرع واسطة نقل في بغداد يومئذ .

الدنكجية

نعم ذكر كل ذلك في كتابه عن محلته (الدنكجية) التي كانت في القرون الخوالي من اكبر محلات بغداد من حيث المساحة وعدد الدور والمرافق العامة فهي تضم جزءا من محلات الميدان ، جديد حسن باشا ، باب الاغا والعاقولية وإمام طه والدشتي والصفافير والموله خانه ، أعود إلى (الدنكجية) لأذكر انه لم يبق منها اثر اليوم إلا اسمها فقد اختفت معظم أبنيتها ومعالمها وثلاث نخلات كانت قائمة في جامع عادلة خاتون الصغير وهو اليوم عمارة لوقوف السيارات مقابل المتحف البغدادي!

وعن طوب أبو خزامة ذكر لي انه نشر تصويره في ص١٠٩-١١٠ وكتب في كتابه (بغداد كما عرفتها) ما يلي : مقابل كهوة سيد بكر وقرب المدخل الجنوبي للقلعة ، يقع تراث بغدادي شهير، هو طوب أبو خزامة الذي جلبه السلطان مراد الرابع مع الحملة التي طردت العجم من العراق ، إن لهذا الطوب منزلة فريدة في قلوب البغداديين والبغداديات فهم يعتقدون بأن الطفل لا يعيش ما لم تدخل الأم رأس طفلها في فوهة هذا الطوب ، وهذه المراسيم بمثابة استحصال شهادة الجنسية البغدادية للبغدادي ، ومن لم يدخل رأسه في فوهة طوب أبو خزامة فهو ليس بغدادياً أصيلاً ، مهما ذكر في السجلات الرسمية عن مسقط رأسه وإنه قد حصل على الجنسية البغدادية منذ أن أدخلت المرحومة والدته رأسه في فوهة هذا الطوب ، فمن الله عليه بطول العمر ليكتب هذا الكتاب .

أما إذا كانت البغدادية عاقراً وتريد (تحبل) فما عليها إلا أن تطلب مرادها من طوب أبو خزامة وتشد (الخرك) في السلاسل والزرزباتات المحيطة به ، لقد نقل طوب أبو خزامة من موقعه القديم إلى موقعه الحالي في وسط ساحة الميدان (شارع الرشيد) محاطا بالزهور والرياحين ، معززاً مكرماً ، وذلك اعترافاً من البغداديين بفضل هذا (الطوب) على حياة أولادهم وأحفادهم !!

وعن الصرافية التي قال عنها انه امضى عهد طفولته وعهد صباه ونصف عهد شبابه في الدنكجية وأمضى النصف الثاني من عهد شبابه وعهد كهولته وشيخوخته فيها قال :

الصّرافية

إن منطقة الصرافية هي عنصر مكمل لشخصية البغدادي وللحياة البغدادية ، فلقد صارت مضرب الأمثال والأقوال ومحط الآمال ومركز الأعمال ومحبة البغداديين في كل آن وزمان ، اشتهرت بحسن موقعها وجمال منظرها وطراز أبنيتها واعتدال مناخها وعذوبة مائها ورقة نسيمها وندرة حشراتها كما عرفت بطيب ثمارها ونضرة خضرتها وخضرواتها وكثرة وتنوع تمورها وجمال زهورها وشدو طيورها وتغريد بلابلها وزقزقة عصافيرها .

في الصرافية أنشئ أول وأطول جسر حديدي للقطار في العراق وهو جسر الصرافية الحديدي والذي له عدة أسماء هي جسر القطار، الجسر الحديدي، جسر الصرافية، وجسر العيواضية .

فيتذكر : (كان التنقل بين الدنكجية والصرافية في أوائل القرن الحالي كما لو كان سفرة بين بغداد والشام، لندرة وسائط النقل وانعدام الطرق ، وإليك خط الرحلة الذي كنا نسلكه يوم كنا نقصد بستان الصرافية ، نتحرك صباحاً مشياً على الأقدام نحو شريعة المكتب (سميت شريعة المكتب ، نسبة إلى ما عرف باسم (مكتب إعدادي عسكري) وهو المدرسة الإعدادية العسكرية ، وكان يشغل مبنى المحاكم المدنية سابقا ، والمبنى الأخير هو الذي شغلته دائرة الدفترخانه في القرن الثاني عشر للهجرة (الثامن عشر للميلاد) بين القشلة والمحاكم المدنية حالياً عبر سوك السراي .

(سكران) ومعه الفرس (نوفه) والبغلة (نجيه) فيمتطي والدنا الفرس وأنا وأخي البغلة واحداً أمام سكران والآخر يحتضنه من الوراء ، فنجتاز شريعة المجيدية (موقع مدينة الطبية حاليا) والسدة الترابية والغبار الكثيف يتصاعد من حولنا ، فإلى يسار الطريق يقع شاطئ المجيدية الأخير الذي تقاسمه رجال الحكم يومئذ وشيدوا عليه قصورهم وإلى اليمين بستان صادق بك (هي البستان الشطانية التي أوقافها صادق بك بن والي بغداد سليمان باشا الكبير) والعلوازية ، لتوصلنا إلى بستان الصرافية (موقع السفارة اللبنانية حالياً) فنصلها بعد ثلاث ساعات في اقل تقدير ومثل هذا الوقت تستغرق رحلة العودة إلى الصرافية إلى الدنكجية.

فقارن بين تلك الرحلة وبين رحلتك حاليا التي تستغرق اكثر من ربع ساعة في الوصول بالسيارة.

بغداد القديمة

وعن ذكرياته عن الحياة في بغداد التي عاصرها ذكر لنا : لقد فطنت على بغداد أيام العهد العثماني وكان عمري نحو الست سنوات ، وكانت محصورة بين الخندق ونهر دجلة من جهة الرصافة ، وبين النهر وحقول وبساتين ومقابر الشيخ معروف والشيخ جنيد ، ومن الشمال محلة الجعيفر ومن الجنوب محلة الكريمات من جهة الكرخ ، ويربط الصوبين جسر خشبي عائم مكون من جساريات من الخشب ومهدد بالقطع كلما ارتفع منسوب مياه دجلة ، بينما كان في بغداد قبل العدوان الثلاثيني عشرة جسور حديدية ثابتة دمرت ثلاثة منها بالقصف العدواني وتم إصلاحها بوقت قياسي وجهود عراقية جبارة ومواد محلية صرفة .

وكان يحيط بغداد سور لم يبق منه الآن سوى جزء قليل يقع بين قاعة الشعب وجامع الأزبك ، وكانت في السور القديم أربعة أبواب هي باب المعظم وباب الطلسم والباب الوسطاني والباب الشرقي ، وكان ترددي على باب المعظم أكثر من الأبواب الأخرى لأننا كنا نمر منها في طريقنا إلى بستان الصرافية ، الواقعة خارج السور والخندق ، وقد هدمت باب المعظم سنة ١٩٢٥م لتوسيع الساحة المقابلة لها والتي تقع عليها قاعة الشعب .

كانت بغداد يوم ذاك عبارة عن محلات وبيوت متلاصقة أشبه بكورة الزنابير ، تتخللها درابين وعكود ضيقة بعضها لا يتجاوز عرضه مترين ، ولم يكن في بغداد الأمس لا شوارع ولا ساحات ولا حدائق ولا متنزهات ولا ملاعب رياضية ، وأول شارع فتح فيها كان أيام الوالي خليل باشا وقد سمي باسمه (خليل باشا جاده سي) ويسمى اليوم شارع الرشيد ، ان فتح هذا الشارع قد لازمته مشاكل عديدة ، فعندما اقترب الهدم من منطقة الحيدرخانه احتج الأهالي وأصحاب الدكاكين والوجهاء الذين سيطول الهدم بيوتهم ، فما كان من رئيس البلدية وكان يومئذ المرحوم رؤوف الجادرجي (ولد سنة ١٨٨٢ وتوفي سنة ١٩٥٩) ، إلا أن يأمر بالهدم ليلا ، ولما الصباح أصبح ، جوبه الناس بالأمر الواقع وليس لديهم من يشتكون إليه إلا الله ، ثم استمر الهدم حتى بلغ محلة السنك حيث تقع القنصلية البريطانية المعروفة محلياً (بيت البالیوز) فاعترض القنصل البريطاني على هدم بعض مرافق القنصلية وجزء من حديقتها ، فتوقف الهدم حتى نهاية الحرب العالمية الأولى وبعد احتلال بغداد استمر تنفيذ المشروع حتى وصل إلى الباب الشرقي ، ولقد كانت هناك قنصليات أخرى عدا القنصلية البريطانية استفادت من توقف الهدم منها القنصلية الألمانية ، وكانت أوسع القنصليات إبان تشييد خط برلين- بغداد واشتهر قنصلها بين الأوساط البغدادية التي كانت تتندر بأخباره ، وكان اسمه (الهر ريجارد) ولكن الأهالي يسمونه (ريشان) وكان اقرب أصدقائه وكيل مشتريات القنصلية المرحوم الملا عبود الكرخي ، وكان القنصل الألماني (ريشان) ينتقل بين محلات بغداد راكبا عربة ذات (جرخين) يجرها (تك حصان) يسوقه القنصل بنفسه.

حمير الاطباء

لم تكن بغداد التي وصفها آنفا بأنها مثل كورة الزنابير بحاجة إلى وسائط نقل ، فكان الناس ينتقلون أما مشياً على الأقدام أو ركوباً على الدواب ، ويتذكر بعض الذين شاهدهم يركبون الخيل والحمير أو البغال ، سواء إثناء العهد العثماني أو إبان الاحتلال البريطاني أو في أوائل الحكم الوطني منهم الطبيب اليوناني (ياغو) الذي كان يمتطي حماراً أسود اللون ، والطبيب الإيراني اليهودي (مرزا يعقوب) الذي كان يزور مرضاه راكباً فرساً بيضاء ، واليهودي (مير الياس) الذي كان يمتطي حمارا حساويا ليوصله من بيته في (أبو سيفين) إلى المستشفى الذي شيده في العلوازية ، والعالم عبد السلام الشواف الذي كان يطوف محلات الكرخ ممتطياً البرذون الأبيض ، والشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي الذي كان يركب بغلة بيضاء ، وصلاح الدين الضراع متولي أوقاف العلوية المعروف بين أصدقائه ومحبيه بـ (الملا شجر) الذي يمتطي حماراً أبيض. ومن الشخصيات الأخرى كان المرحوم (ادوار سيزار) الذي كان مترجماً لدى الحاكم العسكري (آرنولد ويلسون) ثم لدى (برسي كوكس) وبعد ذلك كان مدرساً للغة الإنكليزية في المدرسة الثانوية ، فكان يشاهد بين حين وآخر راكباً حصاناً ومعتمراً برنيطة ومصطحباً حقيبة تضم الرسائل و(الصوغات) و(الخرجية) التي يرسلها نوري السعيد بواسطة الحاكم العسكري إلى عائلته التي كانت تسكن محلة (رأس الكنيسة) إبان وجوده خارج العراق بمعية الملك فيصل الأول .

أما وسائط النقل الأخرى غير الخيل والحمير والبغال فيقول كانت : (البلم) و(الكفة) و (الجلّج) و(والشختور) وسائط النقل النهري ، والعربات على أنواعها (الربل) أو (اللاندون) و(البرشقة) من وسائط النقل البري ، ولما تولى الوالي المصلح مدحت باشا ولاية بغداد سنة ١٨٦٩م أسس واسطة نقل بري جديدة هي (الكاري) تسير على سكة الحديد ويجرها زوج من الخيول تستبدل بزوج آخر في منتصف الطريق بين الكرخ والكاظمية وهي محطة (المنطكة) . وقد ركب (الكاري) مرة واحدة في حياته وكأنه ركب طيارة (جامبو) فقد دعانا صديقه المرحوم إبراهيم الجلبي ابن الحاج عبد الحسين الجلبي وزير المعارف في معظم الوزارات العراقية إلى قصرهم المعروف بـ (القصر أبو الأيل) وهو المحطة قبل الأخيرة من وصول الكاري إلى الكاظمية ، وهو الآن موقع ساحة الشاعر عبد المحسن الكاظمي ، وكانت الدعوة لتناول الغذاء يومئذ (المَسَنْجون) وهي أكلة إيرانية يحسنها طباخهم الإيراني المدعو (ميرزا قلي)!!

أما السيارة الوحيدة التي وصلت بغداد في أواخر العهد العثماني عام ١٩٠٨م فكانت سيارة الوجيه (حمدي بابان) ما عدا سيارة الوالي (خليل باشا) ولا سيارة غيرهما في بغداد ، أما الآن فان مئات الألوف من السيارات تطوف شوارع بغداد التي صارت تزدحم بها .

وحدثني عن الخدمات العامة مثل الماء ، الكهرباء ، الأمن ، والصحة مما تقوم به عدة وزارات ومؤسسات وأمانة بغداد في الوقت الحاضرقائلا :

فأما الماء ، فكان امرنا معه مفجعا ومؤلما وبائسا كنا نعتمد على السقاقي (جمع سقا) لتزويدنا بالماء من اقرب شريعة ، وهي مياه ملوثة وقذرة و(خابطة) خاصة في مواسم الفيضان ، فنملأ (الحباب) بها ونصفي شيئا منها (بالبواكات) للشرب ، ونستعين أحيانا بماء البئر ، ولكنه مالح و (مج) لا يصلح لا للشرب ولا للطبخ ، وكنا نستعمل البئر ، (كثلاجة) لتبريد الفواكه في الصيف لان ماء البئر يكون بارداً في الصيف ونستعمله في الشتاء (كسخان) لأن ماء البئر يكون دافئا في الشتاء فنستعمله للوضوء !! وبعد الاحتلال البريطاني لبغداد تأسست في بلدية بغداد لجنة إسالة الماء ، فشيدت منشآت بدائية في بستان الصرافية ، فحفرت أحواض واسعة تملاها بالماء الذي تسحبه المضخات من النهر ثم تضخه بالأنابيب إلى بعض مناطق بغداد ، بعد أن تتم تصفيته بالشب ، فلا (كلور) ولا (اوزون) ولا هم يحزنون !!

وسائل الانارة

وأما الكهرباء، فلم تكن موجودة في بغداد حتى الاحتلال البريطاني سنة ١٩١٧م وكانت وسائل الإنارة تقتصر على الفوانيس واللالات والثريات والاويزات و(الإدارات) التي تنار بالنفط ، والقناديل التي تنار (بالشيرج) وعلى شموع الكافور ، وبعد الاحتلال تأسست في (العباخانة) محطة للكهرباء لتزويد الشوارع والدور والدوائر بالكهرباء ، فصرنا ندرس على ضوء المصابيح الكهربائية المنصوبة في الشارع المؤدي إلى الجسر والمسمى يومئذ (عكد الصخر) ، وبعد عدة سنوات من تلك المعاناة توسعت شركة الكهرباء وأسست محطة كهرباء الصرافية التي ألغيت في الوقت الحاضر ، بعد إنشاء مصلحة الكهرباء الوطنية.

أما الأمن فانه يتوقف على قوة وضعف وحزم السلطة ، فإذا كان جهاز الأمن قوياً وحازماً أمن الناس على حياتهم وأموالهم وعلى أعراضهم ، ولكن الجهاز كان على العموم ضعيفاً في العهود الماضية ، والعقاب على الجرائم متساهلا جداً ولم يحصل في بغداد طوال العهد العثماني غير حادثة إعدام واحدة عن جريمة اقترفها قاتل من اصل الأعظمية اسمه (ملكي) عندما ذبح ابن أخته في بستان الصرافية من الوريد إلى الوريد فحكم بالإعدام ويجوز تخفيف العقوبة إذا ما تنازلت والدة المقتول عن حقها الشخصي ، ولكنها رفضت أن تتنازل وأصرت على تنفيذ حكم الإعدام بأخيها أمامها فقيل بحقها البيت التالي:

يا للي صلبت (ملكي) رخي جنبته
القاضي والمفتي ما رضوا أخته

والجنبة هي حبل الجنب (القنب) الذي يستعمل للإعدام ، إن حفظ الأمن الداخلي لم يكن من واجبات الجيش العثماني ، وان واجب الجندرمة لا يمثل الحراسة الليلية المنوطة بجهاز خاص يطلق على أفراده أسماء الجرخجية أو البصوانية أو البكجية (وهي كلمة تركية تعني الحارس الليلي).

شرطة ايام زمان

إن اصطلاح الشرطة لم يكن معروفا في العهد العثماني فكان الأفراد المنوطة بهم مهمة الشرطة يعرفون أما (جندرمة) أو (نوبة جي) أو (قانون) أو (جته) أو (الهائية) ثم صار الشرطي يسمى (البليص) ومركز الشرطة (البوليس خانه).

أما الكلام عن الصحة والأمراض فيدمي القلب ، فلم يكن في بغداد مستشفيات ولا مستوصفات ولا عيادات ولا أطباء ولا دواء ولا تلقيح ولا أي شيء يحمي البشر من الموت ، سوى مستشفى واحد بني في جانب الكرخ في أواخر العهد العثماني من تبرعات الأهلين يسمى (مستشفى الغرباء) أصبح في أوائل الحكم الوطني مقرا للمجلس التأسيسي.

أن معالجة المرضى كانت تتم على يد (المزاينة) أي الحلاقين والدجالين والمشعوذين والسحرة ما إليهم وان العلاج كان بدائياً بشكل فظيع ، وإذا ما اجتاح البلد وباء كالطاعون أو أبو زوعة (الهيضة) أو التيفو أو الجدري لم تعد المقابر تتسع للموتى ، فإذا ألم مرض بشخص مهما كان ذلك المرض بسيطاً وأملاً لشفاء بأقل قدر من الحيطة والمعالجة وبأبسط أنواع الإعشاب التي يشتريها المواطنون من سوق الشورجة أو من سائر العطارين ، وان النتيجة الحتمية هي الموت ، كنا أربعة أطفال لوالدينا، وقد أصيب الطفل الرابع بالحصبة التي كان يمكن معالجتها بسهولة في هذه الأيام غير ان الاختلاطات التي رافقت المرض أودت بحياة الطفل لفقدان الدواء أو اللقاح !!

وخلاصة القول اقول لك ان الحياة الاجتماعية في بغداد كانت محدودة إلى ابعد الحدود والمجتمع البغدادي كان مقيداً بالتقاليد الاجتماعية والاعتبارات الدينية وان مجال التحرر منها كان ضيقا جداً. والحياة الاجتماعية كانت مقتصرة على ارتياد المجالس الخاصة والمقاهي والمساجد والمناسبات الشعبية التي تقام في الأيام المخصصة لها، وهي مناسبات ترفيهية للرجال والنساء والأطفال على السواء فلم يكن في بغداد الأمس ما يشبه مدينة الألعاب أو جزيرة بغداد السياحية أو جزيرة الأعراس ولا متنزه كالزوراء، بل كانت عندنا أيام المدائن وسيد إدريس ورابعة بنت جميل وباجلة التي تشتهر بها بساتين الصرافية وبستان الخس.

كما لم يكن عندنا مذياع ولا تلفاز ولا ترانسيستور ولا فديو ، بل كنا نقضي الأمسيات حول (القره قوز) والفوتوغراف وارتياد مقاهي (القصخون) ثم جاءت (الدونبلة) فصرنا نتسلى بها ، والتي كان يديرها المرحوم صالح الجنابي في عدد من مقاهي بغداد .

مقاهي بغداد

إن مقاهي بغداد القديمة كانت تتمثل فيها الحياة الاجتماعية للرجال ، وكانت بمثابة النوادي الليلية التي تشاهد اليوم ، ولذا كثر عددها حتى أصبح في كل محلة من محلات بغداد (كهوة) تعرف (بكهوة الطرف) ، غير أن بعض المقاهي قد اشتهر أكثر من غيرها ومنها في جانب الرصافة ، كهوة شكر ، وكهوة المميز ، وكهوة حمام المالح ، وكهوة الوقف ، وكهوة البلدية ، وكهوة عزاوي ، وكهوة ملا حمادي في المربعة ، وكهوة البقجة في الميدان ، وكهوة جامع الخفاجي ، وكهوة الشط وكهوة المصبغة ، وكهوة (مليكة) في الصدرية، وكهوة (حوري) في الفضل وكهوة حسن عجمي ، وكهوة أمين (كهوة الزهاوي حاليا) وقرب المستنصرية كهوة عبود ، وكهوة عارف اغا ، وكهوة البرلمان ، وكهوة البرازيلية ، والشابندر مقابل سوق السراي، وكهوة إبراهيم عرب في الكرنتينة ، وحجازي في الاعظمية ، وكهوة (العبد) في الباب الشرقي خلف مدرسة الراهبات ، أما في جانب الكرخ فقد اشتهرت كهوة العكامة ، وكهوة الكاريات ، وكهوة المميز (المملكة)، وكهوة البيروتي ، وكهاوي عكيل ، وكهاوي الطرف الأخرى التي لا تحضره أسماؤها!

وعن التعليم في تلك الايام ذكر لنا : الناحية التعليمية لبغداد الأمس مفجعة، فقد كان التعليم مقتصراً على الكتاتيب بالنسبة للذكور، وعلى ما يسمى (الاستة) أو (الخوجة) بالنسبة للإناث، حيث يدرس فيهما القرآن الكريم وكتابة الخط بالنسبة للذكور والخياطة بالنسبة للإناث ولا أكثر من ذلك.

وفي أواخر العهد العثماني أسست مدارس أعلى من الكتاتيب كمدرسة السلطاني ومكتب الإعدادي الملكي والإعدادي العسكري ومدرسة الحقوق ومدرسة المهنية وهي مدرسة الصنائع أما مدارس العسكرية العليا فكانت في اسطنبول وعلى الذين يريدون إكمال دراساتهم العليا سواء العسكرية أم المدنية فعليهم أن يشدوا الرحال إلى هناك في رحلة قد تستغرق عدة اشهر.

وعن الحالة الاقتصادية قال :

لا ادري ماذا تقصد بالحالة الاقتصادية ؟ فإذا كان ما تقصده هو الغنى والفقر في بغداد أيام زمان فذلك لا يقتصر على العراق وحده بل يطول جميع الأقطار التي كانت تحت الحكم العثماني، وفي أواخر الحرب العالمية الأولى كنا نحمل الليرات التركية (بالعلاليك) لنشتري بها بعض المواد الغذائية الرخيصة، جراء التضخم وهبوط الليرة الورقية ، وبعد الاحتلال البريطاني لم يكن الوضع الاقتصادي أفضل مما كان عليه إبان الحكم العثماني ، سوى أن الروبية الهندية قد حلت محل الليرة التركية.

وإما إذا كنت تقصد بالحالة الاقتصادية ما يتعلق بشؤون المواطنين من كسب وبيع وشراء أو تجارة أو أعمال حرفية أو ما شاكل ذلك من وسائل كسب الرزق فان الأمر يختلف تماماً بين الرزق اليوم وبين ما كان عليه الوضع إبان العهد العثماني ، فلم يكن في ذلك العهد من ضرائب سوى ضريبة العقار التي تسمى (الويركو) وهي العشر من بدل الإيجار ، أو ضريبة الاستهلاك وهي العشر أيضاً من بيع الحاصلات الزراعية على اختلاف أنواعها ، وكان هنالك نظام (البدل) للإعفاء من الخدمة العسكرية ، ولا توجد يومئذ ضريبة عقار أساسية واضرب لك مثلا عن كيفية تملك العقار أيام زمان .

لقد اشترى أحد الأجداد دارا في بغداد سنة ١٢٠٨ هجرية أي قبل أكثر من مئتي سنة، وكل ما كان على البائع والمشتري أن يفعلاه هو الحضور أمام الجهة الشرعية الرسمية لتثبت أوصاف وموقع العقار وبدل البيع أو الإيجار ويستحصلا قرارا شرعيا بذلك ويشهدا عليه عددا من الشهود من الوجهاء ورجال الدين فيبصمون (مهورهم) أو يوقعون على تلك الوثيقة التي تعد سند الملكية، وينتهي الأمر.

امنيات للمميز

اما الامنيات التي كان يتمنى تحقيقها قبل وفاته فيذكر:

إن أول شي أتمنى هو أعادة (طوب أبو خزامة) إلى مكانه في ساحة حديقة الميدان ذلك الأثر البغدادي الذي يفتخر كل بغدادي اصلي بأن رأسه قد دس في فوهة ذك الطوب صاحب المعجزات..!! أما وقد دخل رأسي ورأس الشيخ جلال الحنفي في فوهة (طوب أبو خزامة) وإننا ما زلنا على قيد الحياة (كان ذلك عام ١٩٩٥)، فمن حقنا أن ندافع عن هذه (المعجزة) وفاء وتسديداً للدين الذي لها في عنقينا ، وذلك بالإلحاح على إعادة طوب أبو خزامة أما إلى موقعه الأخير في حديقة الميدان أو إلى موقعه القديم في ساحة المدرسة المأمونية القديمة التي هي الآن موقف للسيارات ولا يحتاج الأمر لأكثر من عشرة أمتار مربعة من ذلك الموقف.

والأثر الثاني الذي أتمنى إعادته إلى سابق عهده والحفاظ عليه هو مدرسة الأحمدية